صفحة من التاريخ

مأســـاة

وقعة انبابة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

علة الشرق هاهى : حاكم يسطو ويعبث بالقطيع الذى هو حارسه ، ويبطش به بطش الذئب إذا عدا فى غيبة الحارس الأمين ، فتجفل الشياه ذات اليمين وذات الشمال . ويتقدم من هنا أو من هناك كلب جرىء يحاول أن يدفع الغائلة عن شياهه . فاذا هو يرى سيده الحارس هو الذى يبطش ويفتك . فيضع ذيله بين رجليه ، ويكتم عواءه فى حنجرته ، ويجرى إلى ناحية يكشر عن أنيابه منفرداً وهو متخاذل مهدود العزيمة . لو كان ذلك العادى ذئباً حقيقياً لما وضع الكلب المسكين ذيله بين رجليه ، بل لرفع ذيله وعدا عامداً إلى رقبة ذلك الذئب وأنجى منه القطيع . فأما والذى يفتك بالقطيع هو حارسه ، وأما والذى يبطش به هو الرجل الذى اعتاد أن يحمل الهراوة ويسطو بها على رأسه يكاد يحطمه ، فأمر آخر . وللكلب كل العذر إذا هو التمس العافية فى مهرب من مهارب المرعى ، أو فى مكمن من مكامن الوادى . ولا لوم عليه إذا هو فعل

كان (خوارزم شاه) حاكم خوارزم (أو بلاد مابين سيحون وجيحون) فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، حاكماً جباراً عاتياً . وكان لا يتردد عن مظلمة ، ولا يحجم عن إيقاع . فكم مثّل بتجار من بلاده ، وسجن وعذب ونهب . وكم مثّل بتجار من بلاد جيرانه التتار ، وسجن وعذب ونهب . ولم يقف أذاه عند هذا الحد ، بل تعدى إلى الدولة التى هو حاكمها ، فقت فى عضدها وخضد شوكتها ، وحطم عودها ، حتى صارت بلاده شعباً مشدوهاً وحكومة منحلة مضيعة

ثم كانت الكائنة التى لابد منها فى بلاد مثل بلاده ، فأغارت جيوش جنكيز خان على أطرافها فعجمتها ، فاذا هى رخوة جوفاء ، فتقدمت فيها وأوغلت ، فلم تجد من الطاغية إلا جباناً ، ولم تر منه إلا حرصاً على نفسه وماله وأهله . فما هو إلا أن رأى الجد من أعدائه ، وأحس بما كان لابد منه من ضعف ومن عجز ، حتى ترك البلاد وهرب إلى مأمن ليلتجىء إليه ، وبقى الناس حيارى بعد هربه يحاولون الدفاع وما لهم به من قوة ، ويرجون النجاة وأنى لهم ذلك وقد اقتلع الطاغية جذور القوة من الشعب لتلين له قناته ، فلانت قناة الشعب له حقيقة ، ولم يستطع أن يقاوم طغيانه ما بقى للطغيان ، حتى إذا ماأتاه العدو وألفى نفسه عاجزاً ، ترك ذلك الشعب المسكين وهو أعزل ذليل عاجز عن حماية نفسه . فكانت الكارثة ، وذهب الطاغية وشعبه كلاهما ضحية لعواقب الطغيان

هذه سُنة الطغاة أبداً ، وهذه سنة الكون منذ نشأ . وما كان للقرن الثامن عشر أن يحيد عن سنة الكون التى نكبت خوارزم فى القرن الثالث عشر . فقد كانت مصر فى القرن الثامن عشر تحت طاغيتين من طغاة البشر : مراد وابراهيم ، وكانا كسائر الطغاة قصيرى النظر مفلولى العزيمة ، لا همة لهما إلا فى صغائر الأمور والأنانية . ولسنا بسبيل وصف ما كان عليه حكمهما من الميل والاعوجاج ، ولا ما كان عليه خلقهما من الشناعة والفظاعة ، فقد يكون لهذا حديث آخر ، وإنما نقصد من كلمتنا هذه وصف حال البلاد عندما أزمتْ الأزمة التى كان لابد عنها ، ووقعت النكبة التى كان لابد منها من وراء حكمهما

جاء الفرنسيون إلى ثغر الاسكندرية ، وأصبح الصباح وإذا أهل ذلك الثغر يرون الجنود يخالطونهم ، ويترددون فيما بينهم

وكان الفرنسيون يحملون سلاحاً عجيباً غريباً ، لا عهد لأهل الثغر به ، فما كان عهدهم بالجنود إلا هؤلاء (الانكشارية) الذين يقيمون فى القلاع بين ظهرانيهم يدخنون الشبقات الطوال ، ويطيلون شواربهم ، ويعلون أصواتهم بالسباب ، ويمدون أيديهم بالأذى ، ولا يحملون من السلاح إلا تلك البنادق العتيقة الرثة التى أكلها الصدأ وعفى عليها القدم

وتقدم الأنكشارية نحو الجنود الفرنج ليدفعوهم عن الاسكندرية ، فما هى إلا جولة قصيرة حتى رموا بما فى أيديهم من الأسلحة العتيقة ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى حيث يجد لنفسه مأمناً

ورأى أهل الاسكندرية أن هؤلاء الجنود ليسوا سوى شوكة فى جوانبهم فى السلم ، فاذا حل الحرب فهم لا يدفعون أذى ولا

يرجى منهم غير الأذى . فوقفوا بعضهم يشجع البعض ، وأحدهم يساعد الآخر ، يحاولون أن يلتمسوا لأنفسهم الحماية بسواعدهم . فتحصنوا فى المنازل وجعلوا فى كل ركن متراساً ، وفى كل حائط مرصداً . غير أنهم واحسرتاه أرادوا الدفاع ولم يستطيعوه ، فإذا بالعدو يحصدهم حصداً ، ويدك بيوتهم دكاً ، ويجتاح متاريسهم اجتياحاً . فسلموا للعدو ونزلوا على حكمه ، وصار الفرنسيون فى ساعة أصحاب الأسكندرية

ثم تقدم الجيش الفرنسى المنصور إلى طريق القاهرة ، وسمع طاغيتا الدولة بسيره ، فأجمعا أمرهما على أن يسير مراد لبلقاه ، فيشتت شمله بصدمة من صدمات فرسانه الشجعان ، وخرج من القاهرة منتفخ الأوداج كبراً ، ممتلئ النفس إدلالاً وغروراً . وجعل الناس يسائلون أنفسهم ماذا عساه يفعل ، ويأبى هو إلا أن يرد بالازدراء على ذلك التساؤل قائلاً : « سنحطم ذلك الجيش المغير تحت سنابك خيولنا » وسار حتى بلغ شبراخيت أو قريباً منها ، وهنالك لاحت له طلائع الجيش الفرنسى . ثم كان الاصطدام ، ولطم لطمة خفيفة فلم يصبر عليها ، بل هرب فزعاً ، واضمحلت كبرياؤه ، وذاب إدلاله كما يذوب الثلج فى الحر ، وأسرع راجعاً إلى العاصمة لعله يأتنس بمن هنالك من جنود زميله ابراهيم ، أو ينتصر بمن هنالك من الشعب المصرى الذى طالما أوقع به فى طغيانه وجبروته . فلما بلغ مصر وقف ببقايا جيشه عند (انبابه) ، وأرسل إلى القاهرة يستنجد ويستمد ، فنودى على أهل القاهرة بالنفير والتجهز للدفاع . وهكذا لم يجد الطاغيتان أخيراً أن لهما غنى عن الشعب ، وعلما بعد أن وقعت الواقعة أن الملجأ الأخير إنما يكون إلى هؤلاء العامة ، وقد كانا فى أيام السلم لا يقيان لهم وزناً ولا يفكران فيهم إلا من أجل أموال يبتزانها ، أو من أجل كبريائهما يغذيانها ، أو من أجل نفسيهما الطاغيتين يشبعان شهوة طغيانهما

ولكن كان الشعب واحسرتاه قد قتله الطغيان . فأجاب دعوة النفير وجعل يستعد للدفاع ، ولكنها لجابة المضنى الذى أجهده الضنى ، واستعداد النزيف قد خارت قواه من طول ما أريق من دمائه ، فما يكاد يعتمد على رجليه حتى يخر إلى الأرض مهدوداً متهالكاً

أغلق الناس (دكاكينهم) وهجروا أسواقهم ، وخرجوا جميعاً إلى بولاق يجمع بعضهم من بعض ما عندهم من المال الضئيل ، فأما من عنده فضلة من ماله فقد تطوع بالانفاق على غيره ، وبذل السلاح والطعام لمن يحتاج إليه . وهم فى كل ذلك يتلفتون لعلهم يرون هؤلاء الألى كانوا بالأمس يشمخون بأنوفهم عتواً وكبراً ، فلا يجدون إلا باحثاً منهم عن أمر نفسه ، أو منهمكاً فى نقل متاعه وأمواله إلى حيث يكون آمناً عليها من النهب أو المصادرة . وأبصر الناس ذلك فلم يثنهم عن التقدم نحو واجبهم وهم فى غير عدة . لا بل ماهو أكثر من ذلك ، قد تقدموا وهم غير أكفاء ولا مدربين فى أمور الحرب ، إذ طالما قد وقف الطغاة بينهم وبين أداء حق الدفاع عن الوطن ، خوفاً منهم أن يجعلوا لهم فى أمر بلادهم رأياً ، أو فى حكم وطنهم شأناً . وتقدم شعب مصر نحو الجهاد الوطنى ، وأكثرهم أعزل لا علم له بالحرب ، ولا بما تستلزمه من جهد أو من دربة . حتى لقد خرج بعضهم بالنبابيت ، لا يحسبون ذلك إلا مغنياً عنهم فى معمعان ذلك الجهاد

ووقف الطغاة ينظرون ما صنعت أيديهم ، ومع ذلك لم تنفطر قلوبهم أسى مما يشهدون ، ولم يبخعوا نفوسهم على آثار ما اجترمت حكومتهم فى البلاد . بل ظلوا وهم « حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم . محتقرون لشأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم »[1]

وقدم جيش فرنسا بعد قليل الى انبابة ، فتقدمت اليه جماعة من العسكر ليصدم الجيش المغير مرة أخرى بهجمتها العنيفة . فدفعوا الخيل فى صدر الجيش المقبل ، ولكن لشد ما عجبوا إذ رأوا ذلك الجيش ، لا يتمزق لصدمتهم ، ولا ينصدع من هجمتهم ، فعادوا مذعورين ، وستة آلاف من الجيش الفرنسى تضرب فى أقفائهم ، حتى بلغوا متاريس مراد بك ، فانضموا اليه وقد دب الرعب فى قلوبهم

سار الجيش الفرنسى المتقدم وراء المنهزمين ، وانقسم على أسلوبه وطريقته ، ثم دار على نظامه وخطته ، فاذا متاريس مراد بك محصورة وسط نيران الجيش الفرنسى ، وإذا النار تنصب على المصريين من خلف ومن قدام . وكان فزع ، وكانت مذبحة ، وما هى إلا ساعة أو أقل من ساعة ، حتى انجلى الغبار وارتفع القتام عن حطام الجيش المصرى ، بعضها ملق فوق اليابس ، وبعضها يتخبط فى ماء النهر ، وفلول أسارى فى أيدى العدو ، والنقع الثائر من جهة الجنوب يخفى وراءه الطاغية (مرادا) ، وهو هارب نحو الجيزة حرصاً على حياته

(١) هذه كلمات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله